أخبار الملاح

تمهيد

أيها القارئ:

قد رأيت كيف كان عمر بن أبي ربيعة يحب، وكيف كان يسلك مذاهب النسيب، فانظر الآن كيف كان يتصيد النساء، وكيف كانت تعيش معشوقاته في ذلك الزمان.

وإني لأرى من الخير أن أبين لك قبل كل شيء، كيف فكرت في كتابة هذه الفصول، فقد أخشى أن ترميني بالإسراف في التغني بالحب، والتحدث عن الجمال، وإني بذلك لمتم ظنين!

ألا فلتعلم أن الناس يكثرون في هذا العصر من التجني على الآداب العربية، ويتهمونها بالفقر، والعُقم، والجفاف، والعجز عن مواتاة الغرائز، والشهوات، والعقول. وساعدهم على ترديد هذه النغمة المنكرة ما تقدمه الآداب الأجنبية كل يوم من الأدلة والبراهين على صلاحيتها لتغذية المشاعر، والعواطف والأحاسيس.

وإن قليلًا من الإنصاف لكافٍ للاقتناع بأن أدلة الاتهام قوية، وأن الآداب العربية تبدو ضعيفة ضئيلة بجانب ذلك الدوي الهائل الذي تدمغنا به الآداب الغربية في كل يوم. فهذه كتب المختارات والمحفوظات والدرس التي يتناولها طلبة المدارس الابتدائية والثانوية وبعض المدارس العالية تُعدُّ من الكتب الجافة المقفرة التي تخاطب على الأغلب ناحية واحدة من نواحي الطبع والإدراك.

والطائفة المستنيرة من مفتشي اللغة العربية وأساتذتها تعلم ذلك حق العلم، ولكنها تكتفي بالألم الصامت ترسله في خفية واستحياء، كلما رأت انصراف الطلبة

عن آداب لغتهم وفناءهم في آداب الفرنسيين والإنجليز. وفي الحق أن المادة التي تقدم لطلبة المدارس في اللغة والأدب لا تمتع القلب، ولا توقظ الحس، ولا تثير الوجدان، فهي في الأكثر طائفة من العظات والأوصاف تتحدث عن معانٍ موضعية طوتها الأيام، وأتت على رسومها الليالي، يدرسها جماعة يعيشون في ظلمات القرون الأولى غير شاعرين بما أبدع العقل في هذا الجيل، إن لم يكونوا أَمْسَاخًا خلَّفها عصر ما قبل التاريخ.

ولقد ثارت في الصيف الماضي ضجة عن تقدُّم النثر وتخلف الشعر وكان من رأي أستاذنا الدكتور طه حسين أن النثر تقدم؛ لأن الكتاب يحيون حياة عقلية، وأن الشعر تأخر لأن الشعراء كسالى متبلِّدون. وعندي أن النثر والشعر في التأخر سواء، ولا عبرة بهذه الثروة التي يطالعنا بها الكُتاب في كل صباح، فهي على وفرتها تكرير وترديدٌ لأفكار الفرنسيين والإنجليز والألمان، وليس فيها شخصية ولا ذاتية تحدث القارئ عن حياة أولئك الكتاب. وإن شعراءنا لأدلُّ من كتابنا على أنفسهم، فإنهم حين غفلوا عن أشعار الأمم الأجنبية فرغوا لعواطفهم، فصاغوها خالصة من المحاكاة والتقليد؛ بغضِّ النظر عن متابعتهم لشعراء العرب في المرمى والأسلوب.

ولننتهز هذه الفرصة لنعلن أنه لا حياة للآداب العربية، ما دام كتابها وشعراؤها وخطباؤها لا يرون المرأة في حرية وصراحة، ولا يتأثرون بجبروتها في ميدان الحياة.

وما دام شبابنا يسمعون عن المرأة كما يسمعون عن الغول والعنقاء، لا يرونها حين يرونها إلا قَذِرة دنسة في بيوت الرجس والبغاء، فهيهات أن تتفتح أذهانهم، أو تزهر قرائحهم، أو تظهر على آثارهم الأدبية مسحة التيقظ والتفكير. وتلك الرءوس التي تتولى هداية الشرق في هذا العصر لا تدري مع الأسف الشديد أن الصلة وثيقة بين الأدب وبين الحياة، إن لم يكن الأدب روح الحياة، وأنه لا أمل في أن نرى لكاتب قصة جيدة ما دام الكتاب بعيدين كل البعد عن المرأة التي تلوِّن الوجود بشتى

الألوان؛ فتُحِيله تارةً جحيمًا يرمي بالفزع والهول، ثم تعيده حين تشاء جنة وارفة الظلال. وكيف تكون لنا آداب قوية تمثل فضائلنا ورذائلنا، وحلمنا وجهلنا، وطيشنا ورزانتنا، وعقلنا وجنوننا، ونحن نحرص على الطيبة والاستقامة في غير فهم ولا تبصر، أسوة بغُلف القلوب من سماسرة الأديان وأدعياء الأخلاق!

إنه لا حياة للآداب إلا إذا شغلتنا بأنفسنا، وحدثتنا عن مطامعنا، وأهوائنا، وعيوبنا، ومظانّ الخير فينا. وأرتنا كيف نُحب وكيف نُبغض، ومتى نُقْدِم، ومتى نحجم، وعلَّمتنا كيف نجد، وكيف نلهو، ومتى نقسو، ومتى نلين. أما الأدب الذي يصدر عن رجل مشعوذ معتوه، كل إحساس في رأيه إثم، وكل إدراك عنده فسوق، فهو أدب ميت سخيف لا يقوى به عقل، ولا يسمو به خيال.

وإني لأخشى إن استمر أساتذة الأدب على الاكتفاء بلون واحد يقدمونه إلى الطلبة في كل يوم: أخشى إن استمروا على ذلك أن يصارحهم الطلبة بالقطيعة والفراق!

وبعدُ فهل يسمح القارئ بأن نتجنب تلك الخطة العوجاء، ونقبل على الأدب نتذوق أطيابه، ونعرف حلوه ومره، وحزونه وسهوله، كما كان يفعل القدماء من رجال اللغة العربية، وكما يفعل أهل الغرب في أدبهم الحديث؟

إذا سمح القارئ بذلك شرعنا في بيان تلك الناحية الطريفة من حياة عمر بن أبي ربيعة: وهي تصيده للنساء، وأخبار من كان يعرف من الملاح. ومعاذ الله أن نريد بهذا البحث أن تشيع الفاحشة، أو تحلو في أعين الناس مذاهب الفجور.

إنما نريد أن نُقبل عامدين على الجوانب المرحة التي تزخر بها الآداب العربية، حتى لا يسهل رميها بالفقر والجفاف، كلما حلت هذه الفرية لخصومها الجاهلين.

نريد أن يكون لنا في دراسة الشعراء العشاق نصيب ضئيل من الحرية، التي ينعم بها الكتاب الفرنسيون وهم يدرسون ميسيه، والكتاب الإنجليز وهم يدرسون بيرون، والكتَّاب الألمان وهم يدرسون جوت.

وإنا لمكتفون في الحديث عن معشوقات عمر بن أبي ربيعة بما استباحه المؤلفون القدماء أمثال صاحب الأغاني، وصاحب الأمالي، وصاحب زهر الآداب، ومن إليهم ممن ترجموا هذا الشاعر الغزل، وتحدثوا عمن كان يهوى من ربات الحِجال(١).

ولن يكون ذلك من اللهو الصِّرف، فهو على طرافته جدٌّ في جد؛ إذ يكشف لنا عن نفسية ذلك الشاعر، ويُرينا الفتن التي أرهفت إحساسه، وألهبتْ روحه، حتى أغرم بالحسن، وحبس شعره على الحسان.

ولئن كان من موجبات الحزن أن انصرف كُتاب العرب عن تدوين الحوادث اليومية، كما يفعل أصحاب المذكرات في الغرب، ولم يعد في الإمكان تصوير معشوقات عمر بن أبي ربيعة كما صُوِّرت مثلًا خليلات ألفريد دي ميسه، فإنا نحمد الله على أن وفَّق أبا الفرج الأصبهاني إلى الإفاضة في أخبار تلك الحور العين، إفاضةً شائقة ممتعة، لا ينقصها غير الترتيب والتبويب، إذ ذكرها في أغانيه مبددة مبعثرة في أثناء الحديث عن كبار المغنين وفحول الشعراء.

(١) أهم مرجع لترجمة عمر بن أبي ربيعة وترجمة معشوقاته هو كتاب الأغاني. وعليه عولنا في جمع أخباره مع أولئك الملاح. وكثيرًا ما نكتفي بعبارته حين نراها وافية بما نريد، فلنسجل ذلك هنا اعترافًا بفضل ذلك المؤلف الذي قل نظيره بين القدماء والمحدثين. وليتنا نظفر بكاتب مثله يدون أخبار الكتاب والشعراء في العصر الحديث.

وقد يكون من الحزم أن نلفت نظر القارئ إلى أننا لا نضمن صحة كل ما نقل عن ابن أبي ربيعة ومعشوقاته من مختلف الأخبار، فتلك شخصيات جذابة محبوبة، لا يبعد أن يكون الرواة أضافوا إليها ما شاءت أهواء السامرين من طريف الأحاديث.

فلنقبل ما نُقل إلينا في جملته، مكتفين بهذه الملاحظة التي لم يكن منها بُدٌّ، ولنترك للقارئ الحرية في أن يناقش ما شاء من تلك الأقاصيص، ثم لنمض في الكلام عن أولئك الحسان، راضين بما حكاه الواقع، أو حاكه الخيال!

obeikandl.com